البنية التركيبية من منظور عصبي

La structure d'un point de vue neuronal

د. عبد الحميد بوفاس[1] / المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ، ميلة ،(الجزائر) a.boufes@centre-univ-mila.dz

تاريخ الاستلام:12 / 02/ 2021 تاريخ القبول: 10 /06 / 2021 تاريخ النشر: 30 /06 / 2021

ملخص

يعالج هذا البحث كيفية إنتاج الجمل في الدماغ البشري بناء على بعض التجارب المنجزة حول التذكر ، مشيرا إلى طبيعة الجمل الأصلية في الدماغ وأيها أكثر استحضارا . لتتم بذلك إضافة بعض الحقائق حول استعمال الجمل إلى ما كان سائدا قديما في الفكر البلاغي والنحوي

الكلمات المفتاحية: جملة، تركيب، خبر، إنشاء، تذكر.

Résumé:

La présente recherche porte sur la manière dont les phrases sont produites dans le cerveau humain à partir de certaines expériences réalisées sur la mémoire, indiquant la nature des phrases originales dans le cerveau et quelles sont les plus rappelées. Et de ce fait, certaines réalités sur l'utilisation des phrases ont été ajoutées à ce qui prévalait dans la pensée rhétorique et grammaticale ancienne

Mots clés: *:phrase/ syntaxe/ Actualité / création/rappelle*

[1] **المؤلف المرسل:** د. عبد الحميد بوفاس ، **الإيميل:** *a.boufes@centre-univ-mila.dz*

مقدمة :

قبل الحديث عن كيفية إنتاج الدماغ البشري للجمل وأيها يشكّل الأصل : الجمل الاسمية ام الفعلية ؟ النفي أم الإثبات ؟ البناء للمعلوم أم البناء للمجهول؟ مما يمكن أن تكشف عنه التفسيرات العصبية ، وجب علينا عدم تغافل ما يزخر به التراث البلاغي أو النحوي في نظرته لاستعمالات الجمل واختلاف التراكيب وعلاقتها بالسياق.

ويمكن أن نجعل اهتمام علم المعاني متعلقا بالجملة ومختلف مكوناتها والعلاقات التي تربط عناصرها الداخلية أو الخارجية . فعلم المعاني يدور " حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كل عنصر منها في اللسان العربي ، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره ، ومواقع التعريف والتنكير ، والإطلاق والتقييد ، والتأكيد وعدمه ، ومواقع القصر وعدمه ، وحول اقتران الجمل المفيدة ببعضها ، بعطف أو بغير عطف ، ومواقع كلّ منهما ومقتضياته ، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها، أو أقلّ منه، أو زائدا عليه أو نحو ذلك ."[1] [2]

ولعلّ في ارتباط تلك التراكيب بقائلها ، ومراعاتها مقتضى الحال ، قصد تحقيق أغراض معينة ، هو كشف عن جانب إنساني يترجم الغاية من الكلام ، ويبحث في فاعلية التواصل ، من خلال بيان المقاصد والخواطر الموجودة في النفوس والعقول.

وكلما كان ذلك القصد غامضا، تجلى في غموض التركيب ذاته ، والعكس صحيح " ثم إنّ الجانب الواضح البيّن في الحس الإنساني يقابله هذا الجانب المبين في اللغة." [3]

وعليه تتلون التراكيب اللغوية وتتعدّد صورها من بساطة وتركيب، وتعلّق بمتمّمات أو غير تعلّق، أو تعريف وتنكير، أو تقديم و تأخير، وغيرها من صور الكلام ، حسب ما يعتري النفس من إحساس وشعور ، ومقاصد تعبيرية في صلتها بالمتلقي . ولذلك فإن التراكيب اللغوية تكون " بالغة التعقيد والخصوبة حين تفيض بها النفوس الحية، وذلك لأن كلّ ما في النفس من قلق ونبض ، وكل ما تحسه الروح ويفور به القلب ، لا يجد له مسربا إلا هذه الكلمات ، وهذه التراكيب وكل ما في هذه الأحوال النفسية من خفاء والتباس منعكس لا محالة على تلك التراكيب ، وليس هناك شك في أن الأسرار اللغوية أسرار نفسية ، وأن ما في الثانية من إيماض وتفلت، أو سنوح ونعومة، كائن في الأولى ، وهو ما نعبر عنه مجازا بالإشعاع والإيحاء والإشارة وما شابه ذلك مما نحاول به أن نلتقط اختلاجة الحس من العبارة ونسميه أسرارا بلاغية ." [4]

ومن ثمة ، يمكن أن نصل إلى خاصية في دراسة القدماء لأسرار اللسان ، والتي يمكن أن نقول عنها إنّها " كانت في جوهرها دراسة لأسرار الإنسان وتعرفا على أخفى وأغمض ما يختلج في بواطنه من حس وشعور ، وأنّ ال عناية بالأحوال والكيفيات والتراكيب ليست إلا بحثا في أسرار القلوب والعقول الماثلة في أسرار الكيفيات والتراكيب ، وأن المعنى الخفي الغامض و المستكن وراء هذا الحال من أحوال اللفظ العربي إنما هو الاختلاجة الخفية والغامضة في باطن النفس التي أبدعت هذا التركيب ." [5]

وإذا كانت البلاغة العربية تأخذ أحوال اللفظ والتركيب ، بدءا من المستوى الصوتي وصولا إلى بنية أكبر هي الجملة ، وأحيانا النص ، فإنه يمكن اعتبار " الأحوال اللفظية والمعنوية والنظمية والأسلوبية كلّها داخلة في وظيفة علم المعاني ، لأننا لا نفهم الألفاظ معزولة عن وحيها وجرسها ومدى ألفها، ولا المعاني معزولة عن صورها ، وهيئاتها ، ولا التراكيب معزولة عن طرقها وضروبها، وكل ذلك يدخل في النظم أو يلتئب حوله، ...

ذلك أن النظم ليس نظم ألفاظ وإنما هو نظم معان وخواطر وهواجس نظم لما في داخل القلب والعقل وليس لما في اللسان والفم ." [6]

وعلى هذا الأساس لا ينبغي فصل اللغة عن خواطر النفس وحركة العقل ، ذلك أنّ الخصوصيات الأسلوبية هي خصوصيات عقلية ولغوية وفكرية وروحية وكلّ ذلك معا. [7]

فالإسناد في الجملة العربية " علاقة جوهرية ، تعتمد إما على التماثل أو التضاد أو المقاربة ، أو المفارقة أو التوازي أو الاستدعاء بين المسند والمسند إليه، وكلّها علاقات يمكن أن نسمها بأنها علاقات إيقاعية ، لأنها في النهاية تحقق التلاؤم والانسجام والتفاعل المثمر والمؤثر في آن معا، وفي سبيل ذلك قد يحتاج الأديب أحيانا إلى الانحراف عن العلاقة الأصلية ، معتمدا في ذلك على مقدرته في استغلال الطاقات الكامنة في اللغة ، من حذف وذكر ، وتقديم وتأخير، وتعريف وتنكير ، وفصل ووصل، وخبر وإنشاء... ولا يقتصر التنظيم الإيقاعي على إيقاع العناصر داخلة في إطار الجملة، بل يتعدّاه إلى حركة الجمل داخل السياق ." [8]

ومن دون شك ، فإنه وراء كل هيئة وصورة يكون عليها التركيب ، تتحقق معان ودلالات مغايرة ومتجانسة وطبيعة التركيب، من جهة ، وكاشفة عمّا يعتور النفس من خلجات ومشاعر تظهر تلويناتها في تعدد صور التراكيب .

1. دلالات توظيف الأساليب الخبرية والأساليب الإنشائية:

إنّ ما هو ملحوظ في الشّعر العربي القديم كثرة توظيف الأساليب الخبرية مقارنة بالإنشائية، وربّما يعود ذلك إلى " غلبة الموضوعات التي تضع الشاعر في موقف المخبر عن حاله، أو عن حال غيره، إلا أنّ الانتقال من الأسلوب الإنشائي إلى الأسلوب الخبري أو العكس، كان ذا أثر فعّال في تغذية الإيقاع البلاغي، وذلك لأنه يخلق حركة متموّجة ممتدة تضفي على النص حيوية ونشاطا ملحوظين. " [9]

وإذا تأملنا الأساليب الإنشائية، فإننا نجدها تتميز " بروح حوارية ترتفع معها النغمة الصوتية المعبّرة عن النشاط الانفعالي والنفسي، ويكون مرتكز هذه الحركة أداة تختص بأسلوب معيّن من الأساليب الإنشائية (نداء، استفهام، نهي، قسم، حض ،..) أو يكون مرتكزها صيغة قياسية معيّنة (أمر، مدح، ذم، تعجب) وكلّها أساليب تعكس أزمة المشاعر، وحيرة العقل وتتطلب تفاعلا أكبر من المتلقي يرافقه عادة نشاط انفعالي يحتاج نفسا قصيرا أو نمطا حواريا متجاوبا بعبارات مختزلة، ممّا يعكس الحركة والنّشاط على النص، ويضفي على الإيقاع صفة التنوع بين الارتفاع والهبوط." [10]

وإذا كان الأسلوب الخبري قائما على أساس علاقة الإسناد، فإنها " ... تقوم عادة على أساس التماثل أو التضاد أو التلازم أو الاستدعاء المجازي مما يفسح المجال أمامها للامتداد في مستوى إيقاعي واحد. عموما يمكننا أن نلحظ للجمل الخبرية مسارين اثنين : إمّا أن تأتي متسلسلة تبدأ بجملة الإسناد ليليها متممات الجملة بحسب المقام، فتعطي عندئذ حركة هادئة متسلسلة مستوية، وإمّا أن يصيبها تغيّر بسيط أو كبير، وبحسب هذا التغيّر تزداد حركة العناصر المؤلفة للعبارة الشّعرية وينجم عنها إيقاع حركي متفاعل إمّا صعودا وإمّا هبوطا. وقد تتشابك الحركات الجزئية فتعطي حركة معقّدة متصارعة، كأن تؤخر جملة الإسناد حتى آخر

العبارة، وتقدّم عليها متمّمات الجملة أو بحذف أحد أركانها أو تقسّم أجزاؤها ... وفي أثناء هذه الحركة الفنية يستحوذ الإيقاع على ذهن المتلقي وعلى قلبه وانتباهه فيثير تفاعله ويوقظ إحساسه." [11]

وإذا كان الأسلوب الخبري يثري دلالات النص وينوعها استنادا إلى طبيعة التركيب نفسه، المتنوع بين ابتدائي وطلبي وإنكاري، فإنّ ذلك التعدد في المعنى والتلون في الحركة يتحقق على مستوى آخر وهو الأغراض المستفادة من الأسلوب الخبري بصرف النظر عن مكونات تركيبه . وهذا ما يعزز ربط التراكيب بالسياق الواردة فيه، ويكثّف دلالات النص من خلال الانتقال من معنى أصلي إلى آخر مجازي .

ومن دون شك، فإن "... الانتقال في الدّلالات الأسلوبية يزيد الأسلوب سحرا وجاذبية، ويدفع ملل الرّتابة عند القارئ أو السّامع ..." [12] "، كما " يدفع إلى التّأمّل والبحث وإعمال الذهن، لإدراك هذه المعاني اللطيفة ." [13]

إنّ فكرة اختلاف التركيب باختلاف المعنى المراد التعبير عنه، أو الغرض المستفاد من الكلام، قد أدركها البلاغيون القدامى، من خلال إشارتهم إلى الفروق الموجودة بين دلالات التعبير بالجملة الفعلية والجملة الاسمية، " ... فإذا أريد الحدوث، أتى بالجملة الفعليّة، وإن أريد الثبوت، أتى بالاسمية، ويُتفطّن ذلك من قوله تعالى : " ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ [البقرة، آ: 14]، حيث قالوا أوّلا : آمنا، أي : أحدثنا الإيمان، وثانيا : إنّا معكم : ثابتون على ما كنّا عليه، ولو قالوا لم نؤمن، لدلّ أيضا على الثبوت لأنّ عدم حدوث الإيمان يستلزم ثبوتهم على الكفر، ولكن بالالتزام، ودلالة المطابقة أقوى ..." [14]

ولعلّ المتأمّل في منهج البلاغيين والنحويين القدامى في دراستهم خصائص الألفاظ أو التراكيب أو ما تعلق بعلم الأسلوب، يدرك يقينا نظرتهم العميقة للغة العربية، خاصة في وقوفهم على فكرة أن الاستعمالات اللغوية وإخراج الألفاظ أو التراكيب في صورة معينة ما هو إلا ترتيب للمعاني الكامنة في النفوس والخواطر . ولذلك شملت تلك الدراسات ما هو نفسي وما هو فكري وفلسفي وجمالي في الوقت نفسه، معتمدين على التذوق، لكنّ " التذوّق الذي مارسوه على الشكل انخرط في صميم التجربة الإبداعية، فاستمدوا منه العديد من الرؤى الفكرية والفنّية التي لا يستطيع عامة الناس أن يستنبطوها. وكانوا كلّما انغمسوا في الأسلوب البلاغي انغماس الصوفي النّاسك، واستغرقوا في عالمه الخاص كانوا يستخرجون لنا ضروبا من الجمال الموحية بالصفاء والنّقاء والبهاء... ومن ثمّ أكّدوا أنّ الصورة اللغوية البلاغية ليست مجرّدة؛ بل هي صورة تعيش في عالم الحياة، وتستجيب على الدّوام لكل انفعال، ولكل فكر، فظلّت أعمالهم خالدة حيّة في وجداننا ووجدان الدارسين الغربيين المنصفين الذين اعترفوا لهم بالفضل والرّيادة . " [15]

1. سيميائية الخبر والإنشاء :

لا يمكن أن ننظر إلى التراكيب اللغوية أو الجمل على أنها تراص اعتباطي فقط، بل المعنى هو مدار ذلك التأليف والاجتماع على صورة معيّنة، ذلك أنّه في دراسة القيّم التعبيرية " لا بدّ من الوقوف على الدلالة المعنويّة للجملة، وهي إمّا أن تخبر عن العنى وتصفه، أو أنها تنشئ المعنى ابتداء وتطلب حدوثه، وهذا ما يعرف بالخبر والإنشاء . فاختلاف التعبير خبرا وإنشاءً يتبعه اختلاف في الدلالة السياقية.

ولا شكّ في أنّ الإنشاء بأنواعه : الأمر، النهي، النداء، الاستفهام والتمنّي، يكسب التعبير حيوية وحركة، بالإضافة إلى ما فيه من دلالات تثري المعنى السّياقي . وكذلك الخبر بضروبه : الابتدائي والطلبي والإنكاري، وما يصاحبه من أدوات التوكيد ." [16]

ولكل أسلوب دلالات أصلية وأخرى فرعيّة تستفاد من السياق، أو ما تعرف بالأغراض البلاغية .

كما أنّ طبيعة المكوّن النحوي أو الصرفي ضمن بنية أسلوبية معيّنة يحقّق دلالة إيقاعية تقترن بتلك الطبيعة، فعلاوة على ما أشرنا إليه سابقا من التعبير خبرا وإنشاء، فإن من التراكيب ما يجمع بين الاسمية والفعلية، فتقترن تلك الخاصية بالمعنى المحقق، من ذلك التعبير باسم الفعل (عليكم)، الذي يحمل دلالة " سياقية بما يتضمّنه من مزاوجة الدلالة بين الاسمية والفعلية، وتوظيفها في المعنى المراد، فاسم الفعل " عليكم " فيه ثبات واستقرار من خلال دلالته الاسمية ..." [17]

2. من الرؤية البلاغية إلى الرؤية العصبية :

تتنوع الجمل في اللغة العربية ، بين فعلية و اسمية ، على اختلاف مكوناتهما ، وذلك يعود إلى علاقات الإسناد ، والمقاصد التي يريدها مستعمل اللغة ، فتكون هذه الأخيرة على صورة المعاني التي رسمها في نفسه .

ومن دون شكّ ، فإنّ أعظم ميزة في العربية هي الإعراب ، ولم تكن هذه الميزة ترفا أو زينة ، كما ذهب إليه بعض الدارسين، مما كان لهم حقد أو جهل أو عن غير قصد . وإنّما الحركات الإعرابية هي التي توجه المعنى وتتيح فرص تشكيل جمل كثيرة .

فاحتمالات ترتيب أو تركيب الكلمات في الجمل تتنوع " تنوعا شديدا ، ويتجلى هذا التنوع بصورة لافتة في العربية المعربة ، لما يتيحه الإعراب لهذه اللغة من مرونة تركيبية، تجيز تبديل مواقع الكلمات في الجملة تقديما وتأخيرا في حدود واسعة نسبيا. وبالرغم من هذا التنوع يستطيع المتكلم أن يولد هذه الاحتمالات والسامع أن يفهمها."[18]

وفي سؤال طرحه الباحث " كمال بكداش" حول تخزين المتكلم/ السامع التراكيب المحتملة في الذاكرة واسترجاعها عند الحاجة إليها، ينفي في إجابته ان يكون ذلك الأمر، مقدما الأسباب الآتية:[19]

- الطاقة المحدودة للذاكرة على الحفظ .
- والقدرة اللامحدودة على توليد الجمل وفهمها.

وعليه يفترض الباحث " أنّ هناك في الذاكرة اللغوية تراكيب أساسية للجمل تتفرع انطلاقا منها وفق قواعد معينة جميع التراكيب الأخرى ، فما هي هذه التراكيب الأساسية؟

تدعونا الأدلة التجريبية المتوافرة حول اختبارات التذكر للجمل العربية إلى الافتراض بأن تركيب الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمعلوم (فعل، فاعل ، مفعول به) يشكل التركيب الأساسي الذي تتفرع عنه كافة تراكيب الجمل المبنية للمعلوم ، هذا فيما يشكل تركيب الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمجهول (فعل مبني للمجهول، نائب الفاعل) تركيبا أساسيا مستقلا تتفرع عنه كافة تراكيب الجمل المبنية للمجهول."[20]

ولتعزيز الافتراض السابق يقدّم الأدلة الآتية :[21]

1- تظهر الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمعلوم والجملة الفعلية المثبتة المبنية للمجهول بأنهما من بين الجمل المدروسة ، الجملتان الأسهل على التذكر و الأقل عرضة للتعديل أثناء التذكر ، كما أنهما جملتان مستقلتان ذهنيا الواحدة عن الأخرى لانعدام التعديل في ما بينهما أثناء التذكر.

2- تميل الذاكرة في الغالب ، وبوجه عام إلى تحويل الجملة الاسمية أثناء التذكر إلى جملة فعلية ضمن الصيغة النحوية الواحدة.

3- يوجد ميل غالب للذاكرة إلى تحويل الجمل المنفية أثناء التذكر إلى جمل مثبتة ، ويتجه هذا التحويل بوجه خاص إلى الجمل الفعلية المثبتة ، وعليه يتجه تحويل الجمل المنفية المبنية للمعلوم في الغالب باتجاه الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمعلوم ، فيما يتجه تحويل الجملة المنفية المبنية للمجهول في الغالب باتجاه الجملة الفعلية المثبتة المبنية للمجهول.

4- يكاد ينعدم إمكان تحول الجملة الفعلية المبنية للمعلوم أثناء التذكر إلى جمل مبنية للمجهول ، وكذلك يكاد ينعدم أثناء التذكر إمكان التحول العكسي. ولعلّ في ذلك ما يؤكد على استقلال هاتين الصيغتين للجمل إحداهما عن الأخرى وانعدام الروابط العقلية بينهما.

2-1-كيف يعلّل الباحث تلك النتائج؟

قبل الإشارة إلى تعليلات الباحث ،فإني أجمل حيثيات التجربة التي استشهد بها وبنى عليها استنتاجاته .

تجري إحدى الطرق التجريبية لدراسة ذاكرة التراكيب الجملية[22] على مجموعة من المفحوصين حيث وزعت عليهم دفاتر صغيرة وورقة بيضاء وقلم. تعرض عليهم عشر جمل متغايرة مضمونا وتمثل كلّ منها تركيبا من التراكيب الجملية المدروسة من ا إلى ي، مع اختلاف توزيع الجمل في دفاتر المفحوصين وخضوعها لترتيب مختلف. ثم يطلب منهم قراءة كل جملة لمدة معينة مع انتظار إشارة الدق لقلب الصفحة وقراءة الجملة التي بعدها.

ثم طرحت أسئلة متمثلة في : ما هو تاريخ ميلادك؟ ما هو عنوانك ؟ ما هو جنسك؟ والغرض من ذلك إيجاد فاصل زمني بين قراءة الجمل واختبار تذكرها. وبعد الانتهاء يتم الفرز على أساس ثلاث حالات :

1- حالة الاستعادة الصحيحة للجملة

2- حالة النسيان التام للجملة

3- حالة تعديل الجملة من تركيبها الأصلي الذي وردت فيه في دفتر المفحوص إلى تركيب أخر. ويميز في هذه الحالة بين:

أ- التعديل الذي يتم ضمن الصيغة الواحدة كتعديل التركيب (جملة اسمية مثبتة للمعلوم) مثلا إلى التركيب (جملة فعلية مثبتة للمعلوم) ضمن الصيغة الواحدة (جملة مثبتة للمعلوم) .

ب- والتعديل الذي يتم بين الصيغ المختلفة كتعديل التركيب(جملة اسمية منفية للمعلوم) إلى التركيب(جملة فعلية مثبتة للمعلوم)، أي التعديل من صيغة النفي إلى صيغة الإثبات.

وبناء على ما لا حظه الباحث افترض أنّ الجملة الفعلية المثبتة (المبنية للمعلوم أو المبنية للمجهول) تشكّل من الوجهة النحوية والعقلية أصلا تتفرع عنه طائفة من الجمل ، "والأدلة النفسانية على ذلك :

1- أنها الأسهل على التذكر.

2- أنها لا تتحول عند التذكر إلى جمل أخرى.

3- فيما تتحول إليها عند التذكر جمل أخرى.

يعود ذلك على ما نفترض إلى سببين متضافرين :

أ- فالجملة الفعلية المثبتة تشكل الجملة الأبسط نحويا وعقليا بمقارنتها مع الجملة المنفية، كما تشكل الجملة الأكثر تواترا في الاستعمال بمقارنتها مع الجمل الاسمية.

ب- البساطة : والواقع أن معيار البساطة والتعقد معيار غير واضح في نحو اللغة ، ولا توجد في هذا النحو أدلة صورية (شكلية) صريحة يمكن الاستناد إليها للحكم على درجة بساطة الجمل أو درجة تعقدها. أما من الوجهة النفسانية ، فإننا نملك معيارا مناسبا للبساطة والتعقد اللغويين : فالجملة الأبسط هي الجملة الأيسر على المعالجة الفعلية. أي الأسهل على الإدراك والفهم والإنشاء. واستنادا إلى هذا المعيار النفساني يمكن أن نستنتج بأن الجملة المثبتة أبسط من الوجهة النحوية والعقلية من الجملة المنفية(هذا بالطبع في حال تكافؤ كل العوامل النحوية الأخرى غير الإثبات والنفي بين الجملتين) .

وتعليل ذلك "على ما يبدو أنّ الإثبات يشكل أصلا للنفي ، بحيث ينبني النفي على أساس الإثبات ، وتنبني الجملة المنفية على أساس الجملة المثبتة ، مضافا إليها عملية النفي مجسدة بأداة شكلية معينة أداة النفي. ولعلّ ذلك ما يفسر هذا الميل في الذاكرة إلى استحضار الجملة المنفية بالصيغة المثبتة أي إلى استحضار الأعقد بصيغة الأبسط" [23]

وعليه تبدو الجملة المثبتة لبساطتها النحوية النسبية أصلا للجمل المنفية، وإضافة إلى تغيّر المعنى بين النفي والإثبات ، لا ننسى أيضا تغيّر صورة التركيب بالزيادة في أداة النفي.

التواتر : " من الثابت تجريبيا أن الكلمات الأكثر تواترا في استعمال اللغة تدرك بصورة سريعة من الكلمات الأقل تواترا ، وينطبق ذلك أيضا على سلاسل الكلمات وعلى الارتباطات بين الكلمات في الجمل ، والحال أن الجملة الفعلية تبدو في استعمال اللغة العربية أكثر تواترا من الجملة الاسمية : فالفعل يتصدر الجملة في معظم الأحوال لأن المتكلمين بالعربية اعتادوا الاهتمام بالحدث قبل الاهتمام بفاعل الحدث. ولهذا تبدو الجمل الفعلية أفضل جهوزا في الذهن وبالتالي أسهل تذكرا من الجمل الاسمية. وفي ذلك ما قد يفسر لنا هذا الميل العام للذاكرة إلى أن تستحضر الجمل الاسمية محولة إلى جمل فعلية ، أي إلى استحضار الأقل تواترا بصيغة الأكثر تواترا. وعليه تبدو الجمل الفعلية لارتفاع تواترها النسبي في اللغة العربية أصلا للجمل الاسمية."[24]

ويبقى لنا التكافؤ في تذكر الجمل المبنية للمعلوم والجمل المبنية للمجهول ، وكيف بدا لنا أن الصيغتين مستقلتين.

يجيب الباحث عن تلك الملاحظة في تذكر الجمل ، بتقديم المثال التالي مع شرحه وبيان العلاقة بين نموذجيه .

الجملة الأولى هي : أَكلَ الولدُ الطعامَ

والجملة الثانية هي : أُكِل الطعامُ .

فيرى الباحث " أن هاتين الجملتين متكافئتان معنى وبساطة نحوية. فإذا كان نفي الجملة المثبتة يبدّل في معناها ، فإن تجهيل الجملة المعلومة لا يحدث مثل هذا التبديل : ففي الحالين فإن أحدا- الولد في الحالة الأولى ومجهول في الحالة الثانية- أكل الطعام. كما أن هاتين الجملتين متفقتان من حيث البنية النحوية ؛ فكلتاهما جملة إسنادية متكافئة ومتعادلة ذات طرفين هما المسند والمسند إليه."[25]

ويضيف قائلا : " ويحتل فيهما الفاعل وما يسمى بنائبه منزلة نحوية واحدة فهما مرفوعان ويسند إليهما الفعل. هذا التعادل النحوي والدلالي بين الجملة المبنية للمعلوم والجملة المبنية للمجهول يدفع إلى استبعاد الافتراض بأن إحداهما متحولة نحويا عن الأخرى. ولعلّ ذلك ما يفسر هذا التكافؤ في استذكارهما، وانعدام التحول بينهما عند التذكر. فالبناء للمعلوم والبناء للمجهول عمليتان نحويتان مستقلتان الواحدة عن الأخرى.". [26]

ويمكن أن نضيف حقيقة عصبية أخرى تتعلق بالتخطيط للجمل وكيف يكون . إنّ التخطيط للجملة أو المجموعة الكلامية التالية- أي التي تكون جزءا داخل جملة- يحدث في أثناء نطق الإنسان لِما خطط له سابقا وليس بعد أن ينتهي من نطقه.[27]

فهناك مرحلتان للتخطيط : هناك مرحلة التخطيط الإجمالي ومرحلة التخطيط التفصيلي ، أمّا التخطيط الإجمالي فيبدأ أثناء النطق بالجملة السابقة ، بينما يحصل التخطيط التفصيلي أثناء النطق بالجملة المخطط لها . كما أن التخطيط الإجمالي يشمل المفردات الرئيسة والقواعد والنغمة المناسبة بينما يشمل التخطيط التفصيلي تنظيم المفردات والقواعد المختارة بعضها مع بعض بالشكل السليم.[28]

وإذا كنا ذكرنا في ثنايا هذا البحث كيف يخزن المتكلم أو السامع الكلمات بناء على جملة من التصنيفات ، منها التشابه والتضاد واللزوم والمماثلة الصوتية ، فإنّا نعثر على معيارين آخرين ، وهما في حقيقة الأمر لا يخرجان عما هو صوتي ، يتمثل في التنغيم ، وما هو زمري ، يتمثل في التماثل أو التقارب الدلالي ، أو الانطواء ضمن حقل دلالي واحد.

" إنّ الإنسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معانيها، وربما كان أوضح مثال على ذلك تلك المفردات التي تدل على صلة القربى كالأب والأم والأخ والأخت والعم والخال ...فعندما يحتاج الإنسان إلى استعمال إحداها فإنه يتجه أولا إلى المجموعة ككل ثم يختار واحدة منها، فإذا أخطأ كان خطؤه في الغالب ناتجا عن استعمال إحداها بدلا من الأخرى. أما من حيث الشكل الصوتي للكلمة فيبدو أن الأطفال يحتفظون بها عن طريق النغمة العامة لها، بينما يستطيع الكبار أن يذكروا بالإضافة إلى النغمة العامة الصوت الأول من الكلمة." [29]

2-2- اقتراحات البنية التركيبية:

يمكن أن نقترح مجموعة من البنى التركيبية بناء على النتائج السابقة :

2-2-1- الإكثار من الجمل الفعلية المكونة من :

أ- الفعل و الفاعل والمفعول به :

- يَكْتُبُ التِّلْمِيذُ الدَّرْسَ

- يُحِبُّ التّلْمِيذُ الوَطَنَ
- يَقْرَأُ الطِّفْلُ القِصَّةَ
- يُنَظِّفُ أَحْمَدُ الثِّيَابَ
- يُسَاعِدُ أَحْمَدُ الفَقِيرَ
- يُحِبُّ أَحْمَدُ النَّاسَ.
- اِخْتَرَعَ أَحْمَدُ سَاعَةً

2-2-2-الانتقال إلى ما يبقى على حاله (الجمل المبنية للمجهول) :

- كُتِبَ الدَّرْسُ
- أُكِلَتِ التُّفَاحَةُ
- نُظِّفَ الثِّيَابُ
- حُمِلَتِ المِحْفَظَةُ
- رُفِعَ العَلَمُ
- قُرِئَ النَّصُ

2-2-3- **الانتقال إلى ما يتحول (الجمل الاسمية المثبتة)**

- الدَّرْسُ سَهْلٌ
- الجَوُّ صَحْوٌ
- العِلْمُ نُورٌ
- الجَهْلُ ظَلَامٌ
- اللهُ رَبُّنَا
- مُحَمَّدٌ رَسُولُنَا
- الشَّارِعُ نَظِيفٌ
- الإِسْلَامُ دِينُنَا
- العَرَبِيَّةُ لُغَتُنَا

2-2-4- **الانتقال إلى الجمل الفعلية المنفية (باعتبار الزيادة في التركيب وتغير الدلالة)**

- لَا أُحِبُّ الظُّلْمَ
- لَا أَقُولُ الزُّورَ

- لَا أُلَوِّثُ البِيئَةَ
- لَنْ أَخُونَ وَطَنِي
- لَنْ أَشْهَدَ الزُّورَ
- لَيْسَ الأَرْضُ ثَابِتَةً
- لَيْسَ الجَهْلُ نَافِعًا
- لَمْ أَتَغَيَّبِ البَارِحَةَ.

ومن التدرج في صيغ الجمل السابقة يكون التدرج أيضا في الإكثار من الأصوات غير المستعملة ، من مثل : الذال ، والثاء ، والظاء ، والصاد ، والغين ، لتتشكل ألفة الاستعمال مع ما هو متداول ، وشائع دلاليا ونحويا لدى التلاميذ. وبذلك لا تبقى تلك الأصوات شبة مهجورة أو أنّ المتعلّم يجد معها صعوبة مع تقدّم السنّ.

ونشير إلى أنّ الأمثلة السابقة لا تكون مبتورة عن سياقاتها الثقافية أو الاجتماعية أو الدينية أو السياسية ، وإنّما تكون في نصوص حتى يتمكّن التلميذ من تعلّم اللغة في صورتها الحقيقية ، ففي النص تتجلى الممارسة اللغوية ، إضافة إلى القيم التي يحملها . " إن المفردة والعبارة لا تدخلان إلى الذاكرة الطويلة فتستقران في ذهن المتعلم وتشكلان جزءا من مخزونه المعجمي الذي يصبح في متناول استعماله ساعة يرى ضرورة لذلك ، إلا إذا ارتبطتا في السياق الذي وردتا فيه وبالتأثير الذي يتركه النص الذي يحملهما."[30]

الخاتمة:

- إذا كانت التجارب العصبية تثبت أن تعلّم اللغة المنطوقة يمكّن الدّماغ من تشكيل صور انطلاقا من السمع ، وتخزينها في الذاكرة طويلة المدى ، فإننا نقترح الاهتمام بالجانب السمعي البصري داخل مؤسسات التعليم الابتدائي خاصة ، وإنشاء مخابر صوتية ، تمنح فرص الاستماع لمختلف الأصوات اللغوية ، حتى تتشكل الذاكرة السمعية بشكل صحيح ، لتؤسس للتفكير بالفصيح .

- بما أنّ الميزة الموسيقية كانت وراء تذكر واسترجاع الأصوات أو الكلمات أو الجمل ، من خلال المشابهة الصوتية أو التنغيم في الأساليب ، فإنّ هذا الطرح يعزز فكرة جعل القرآن الكريم هو الأساس في تعليم اللغة العربية وتعلّمها. وهذا يسلمنا إلى ضرورة الإكثار من الأساليب البلاغية التي تعتمد على الجانب الصوتي أكثر ، من ذلك : الجناس والسّجع.

- التنويع في الأساليب بين إنشائية وخبرية ، فإذا كانت الأساليب الخبرية تميل إلى السكون من خلال التقرير والإخبار ، فإن الأساليب الإنشائية تعمل على إثارة الوجدان والعواطف والعقل معا.

- وعليه فإنّ النتيجة السابقة تقودنا إلى ضرورة التركيز على منح فرص أكبر للمتعلمين أثناء المشافهة ، للتعبير عن ذواتهم ، والتمكّن من خلق ممرات عصبية تكون كفيلة بتعلّم اللغة وفهم المعلومة المستقبلة بيسر وسهولة.

- الإكثار من التمارين البنوية المتعلقة بتحليل جمل إلى مكوناتها ، أو تركيب جمل من خلال مجموعة من كلمات غير مرتبة ، أو ملء فراغات ، أو الاعتماد على التنظيمات التي يتم بها فهم الكلام وإنتاجه ، من تشابه ، وترادف، وتضاد ، وكتل الأسماء أو الأفعال .

- ضرورة تعزيز الجوانب البلاغية في مراحل التعليم الابتدائي ، كونها تعدّ ممارسة لغوية تمكّن من فهم اللغة ، وليست تركيبا إضافيا في بنية اللغة ، هذا من جهة ، كما أنها تلتقي ومبدأ تعلّم الأصوات أو الجمل أو المعاني في ميزة المشابهة ، من جهة أخرى.

- ضرورة الاهتمام بالصوامت القصيرة والطويلة ، لأن المعنى يتوقف عليها ، وفرص التنويع في الجمل تكون على أساسها ، إضافة إلى كونها سهلة على النطق.

- ضرورة التنويع في الجمل المستعملة ، مع تتبع الترتيب الآتي : الجمل الفعلية المثبتة، الجمل المبنية للمجهول ، الجمل الاسمية المثبتة، الجمل الفعلية المنفية .

الإحالات والهوامش:

([1]) - عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني : البلاغة العربية ، أسسها، وعلومها ، وفنونها ج(1)، ط(1)، دار القلم دمشق ، والدار الشامية بيروت للنشر والتوزيع ، 1996 م ، ص/139.

2

([3]) - محمد محمد أبو موسي : دلالة التراكيب دراسة بلاغية، ط(5)، مكتبة وهبة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2014 م، ص/51.

([4]) – المرجع نفسه ، ص/51.

([5]) – المرجع نفسه ، ص/55.

([6]) – المرجع نفسه ، ص/42.

([7]) - المرجع نفسه ، ص/39.

([8]) - ابتسام أحمد حمدان : الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مرا وتد : أحمد عبد الله فرهود ، ط(08) ، دار القلم العربي للنشر ، حلب ، 1997 م ، ص/215، 216.

(9) - المرجع نفسه ، ص/217.

(10) - المرجع نفسه، ص/218.

(11)- المرجع نفسه، ص/219.

(12) - عبد السّلام أحمد الرّاغب: الدراسة الأدبية، النظرية والتطبيق، نصوص قرآنية، ط(01)، دار القلم العربي ودار الرفاعي للنشر والتوزيع، سوريا، حلب، 2005 م، ص/57.

(13)- المرجع نفسه، ص/57، 58.

(14)- زكي الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ط (1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص/68.

(15) - حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2005 م ، ص/18.

(16) - عبد السّلام أحمد الرّاغب: الدراسة الأدبية، النظرية والتطبيق، ص/57.

(17) – المرجع نقسه ، ص/58.

[18]-كمال بكداش : علم النفس ومسائل اللغة، ط(1)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002 م، ص/ 52.

[19]- المرجع نفسه، ص/53.

[20]- المرجع نفسه، ص/53.

[21]- المرجع نفسه ، ص/54.

[22]- المرجع نفسه، ص/152، 153، 154 من الهامش.

[23]- المرجع نفسه، ص/55.

[24]- المرجع نفسه، ص/56.

[25]- المرجع نفسه ، ص/56.

[26]- المرجع نفسه، ص/57.

[27]- نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ع 9 ، 1978م، ص/157.

[28]- المرجع نفسه، ص/158.

[29]- المرجع نفسه، ص/159.

[30]- أنطوان صياح: تعلّمية القواعد العربية، ط(1) ، دار النهضة العربية ، بيروت ،لبنان ، 2011 م، ص/110.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابتسام أحمد حمدان : الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، مرا وتد : أحمد عبد الله فرهود ، ط(08) ، دار القلم العربي للنشر ، حلب ، 1997 م.
2. أنطوان صياح: تعلّمية القواعد العربية، ط(1) ، دار النهضة العربية ، بيروت ،لبنان ، 2011 م
3. حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء (دراسة بلاغية جمالية نقدية)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2005 م
4. زكي الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، ط (1)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
5. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني : البلاغة العربية ، أسسها، وعلومها ، وفنونها ج(1)، ط(1)، دار القلم دمشق ، والدار الشامية بيروت للنشر والتوزيع ، 1996 م.
6. عبد السّلام أحمد الرّاغب: الدراسة الأدبية، النظرية والتطبيق، نصوص قرآنية، ط(01)، دار القلم العربي ودار الرفاعي للنشر والتوزيع، سوريا، حلب، 2005 م.
7. كمال بكداش : علم النفس ومسائل اللغة، ط(1)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002 م،
8. محمد محمد أبو موسي : دلالة التراكيب دراسة بلاغية، ط(5)، مكتبة وهبة للطباعة والنشر ، القاهرة ، 2014 م.
9. نايف خرما : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ع 9 ، 1978م.